القسم التاسع

كفاح الجزائر أمام جحافل فرنسا

قال ضابط البحرية الياباني :

إنك لم تفهم بعد الدرس الذى تلقيناه من أجدادنا بهزيمتهم وموتهم . أنه درس صبر وعناد ، ويقظة واحتراس ؛ ومكر وخديعة لكى نتتصر على أعدائنا ذهبنا لمدارسهم ، وكانت عقولنا لا تهضم تعاليم الغرب وأساليبه . فشعرنا بحاجتنا إلى عقلية أوربية ، فأقدمنا بكل صعوبة وألم وحسرة على التحرر من أشياء عزيزة علينا للحصول عليها ؛ ولكن هذا التغيير كان لازما لأجل الخلاص ؛ لأجل إنقاذ الوطن ؛ لكى نتتصر على الأعداء فى الميدان .

(من كتاب المعركة)

إننا لا نحاول سرد حوادث هذا الكفاح لأن من السهل تتبع معاركه وأدواره وحلقاته من كتب التاريخ فى مختلف اللغات : ولذلك سنكتفى باعطاء فكرة إجمالية ، أو رسم صورة عامة من التى يراها

واقف على مرقب أو مركز للرصد على رابية عالية تشرف على الحوادث والتطورات وعلى مواقع القتال ، ونرجو أن نوفق فى إخراج التاريخ صورة حية ، وذكرى لمن شاء أن يتذكر ، من دروسه وتجاربه وعبره ، حتى لا تتكرر الأخطاء مرة أخرى فى تاريخنا وكفاحنا[١] .

كانت حكومة الجزائر الإسلامية من الحكومات التى ليس لها شبيه أو مماثل فى التاريخ ، إذ كانت تابعة للدولة العثمانية ، ولكنها تتمتع بسيادة وحرية ، وكانت خارجة على القانون الدولى ، والعرف السائد بين الأمم الأوربية ، ومع ذلك فهى تفرض الأتاوات على على دول الغرب ، وتتقاضى رسوم المرور فى عرض البحر ، وإلا هاجمت أساطيلها المراكب التجارية ، وأحيانا ثغور هذه الدول ومرافئها ، ولهذا سالمتها الحكومات المختلفة ، وأذعنت لقبول ماتفرضه هذه الحكومة عليها ، فكانت فرنسا ترسل إليها هدايا معلومة مالية أحيانا ، وأخرى معدات وآلات حربية ، وكان هذا شأن بريطانيا معها والدانيمارك ومملكة صقلية والبرتغال والسويد والنرويج ، حتى ولايات المانيا والولايات المتحدة خضعت لهذا النظام العجيب الذى فرضته حكومة قليلة العدد ، ولكنها كثيرة البطش .

---

(١) كتب قبل نكبة فلسطين .

وكانت قواتها المسلحة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ ألف مقاتل ، من الجنود الأتراك[١] ، أو ابناء هؤلاء من أمهات وطنيات ، وكان ينضم إليها رجال من قبيلة زواوه ، وهى التى حرفها الفرنسيون ، فأصبحت فرق الزواف المشهورة التى قامت على متطوعى هذه القبيلة ، وبقايا جند حكومة الجزائر النظامية .

وعلى هؤلاء الجنود اعتمد الدفاع عن المدن الساحلية عند مهاجمة الفرنسيين ، ولما ثبتت قواعد حكمهم جندوا من الأسرى أول فرقة وطنية للاستعانة بها .

أما فى الداخل فقد قامت قوة الدفاع من جماعات المقاتلة من رجال القبائل ، وهم مشاة وفرسان على طريقة حروب البادية ، ولما اشتدت المعارك فكر الأمير عبد القادر فى إدخال النظام العسكرى الحديث ، مقلدا المحاولات التى حاولها كل من محمد على ، والسلطان محمود العثمانى ، ولا شك فى أن هذه المحاولات قد بهرت أنظاره ، وتطلع إليها ، وحاول تقليدها .

وفى سيرة الأمير ذكر ابتداء هذه الحركة وانتشار الدعوة إلى تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر تحت اللواء المحمدى ، وإيجاد دفاتر لقيد الجنود ، الذين بدءوا تدريبهم ، وأتموا تعليمهم ، ورسم الذين حملوا السلاح منهم كما فيها وصف كامل لأصناف الفرق ، من مشاة

---

(١) دخل الاتراك المغرب فى عهد ابن طولون ، وهاجروا اليه فى عهد الايوبيين جماعات .

وفرسان، ومدفعية ، وطريقة التعبئة ، والسير والنزول فى المعسكرات ويظهر أن هذه القوة مع اهتمام الأمير عبد القادر بها لم تكن هى التى يقع عليها عبء القتال وحدها وإنما كان الكفاح موكولا إلى رجال القبائل ، وكانت هى بمثابة قوات ثانوية مساعدة ومكملة .

أما الفرنسيون فكانوا على علم تام بطبيعة الأرض الجزائرية من ناحيتها الجغرافية والطبوغرافية ولديهم الخرائط المفصلة عنها فقد أثبتت المراجع الرسمية أن نابليون الأول أرسل ضابطا فرنسيا إلى الجزائر عام ١٨٠٨ ، وكلفه أن يدرس بالتفصيل مشروع الحملة الفرنسية ؛ ووضع الخطط العسكرية الشاملة ، وقد قام هذا الضابط بمهمته ، وصحح المواقع على الخرائط ، ورفع تقريراً وافياً عن الشاطىء الأفريقى والأماكن التى تصلح لإنزال الجنود وأشار إلى الطرق والآبار والوسائل التى تؤدى إلى حشد القوات وربطها ، والسير فى حلقات الحملة ، ولم يكن لدى الفرنسيين عند عدوانهم سوى إخراج هذا التقرير من ملفات وزارة الحربية وتقييد مافيه وهذا ماحدث فى عدوان سنة ١٨٣٠ إذ انزلت الفرق فى الأماكن المختارة فى هذا التقرير وتحت تجارب حملة مصر عند احتلالها مدينة الإسكندرية واختيارها منطقة العجمى التى تشبه سيدى فريج ولم يكن الفرنسيون على جهل بأساليب القتال لدى المسلمين ، فهم قد حاربوا الممالك فى معركة

انابه[١] ، ورأوا ما يمكن أن تقوم به أساليب القرون الوسطى أمام جنود معبأة على الطرق الحديثة . ثم هم لم يهملوا تتبع التطور الذى أدخل على أنظمة جيوش المسلمين ، فقد كان من ضباطهم وقوادهم من رافق حملات مصر ضد الوهابيين ، وكانوا فى الصفوف الأولى يقيدون حركات المصريين ودفاع الوهابيين ، ويكشفون عورات الجانبين ، ثم يستفيدون من كل ذلك فى حروبهم بالجزائر .

واختير للقيادة البرية الماريشال بورمون وهو من رجال سنة ١٨١٥ أى من الضباط الذين قاتلوا فى معركة واترلو ، وحضروا معارك نابليون ، فأسندت إليه آمرية حملة بنيت على تقرير ضابط من ضباط نابليون ، وكان على الأسطول الأميرال دوبريه ، ولكل منهما طابعه الخاص ، ورغبته فى الإنفراد والتسلط فما لبث أن دب الخلاف بينهما ، ولولا تعليمات الحكومة الصريحة أنه إذا اختلف الرأيان فضل رأى المريشال ، واسندت إليه القيادتان البرية والبحرية لاستفحل بينهما النزاع ولفشلت الحملة .

ولعل أعظم ماساعد الفرنسيين على التغلب هو أعمال المدفعية التى تجرها الخيول ، فقد امتازت منذ الساعة الأولى كما ذكرنا بقوة بيرانها ، وتوفيقها فى إصابة الأهداف وسرعة حركتها ، فكانت أول عامل من عوامل النصر لديهم . كانت كمدرعات هتلر ، وفرقة

(١) كانت معركة الاهرام قاضية على فكرة ان جيوش المماليك لا تقهر .

البانزر الألمانية فى الحرب الأخيرة وهى الميزة التى كانت لدى الفرنسيين على جند حكومة الجزائر وعلى العرب المجاهدين . ولولا هذه القطع من المدفعية لكانت الحرب بين الفريقين على مستوى واحد ، من تكافؤ معدات القتال .

فلتنظر إلى ساحل يمتد الأميال ، عليه مدن ومرافق متعددة ، ويتكون الداخل من سلاسل جبال ووديان ورمال ، تصلح للحروب وتسمح للقبائل والعشائر التى تسكنها أن تتولى عملياتها بكل سهولة ضد الجيش المهاجم سيما وهى من جماعات ألفت الحرب .

على هذا الميدان نزلت قوات فرنسا بمعداتها الثقيلة ومهماتها الأوروبية لتواجه أهل البلاد ولديهم ثلاثة أصناف من المقاتلة : جند حكومة الجزائر وحكام المقاطعات ، الجند النظامى الذى أنشأه الأمير عبد القادر ثم العمود الفقرى للقتال وهم رجال القبائل الذين لبوا دعوة الجهاد .

هذه هى حرب الجزائر التى اشتدت وطأتها على أربعين ألفاً من الجنود الأوربيين ، اصطلوا بمعاركها ، ومشوا إليها تحت وهج الشمس ، فتغيرت سحنتهم ، وتبدلت لديهم ملابس الميدان ، وأصبحوا مع الزمن كقطيع منفصل عن العالم ، لا يعرف سوى الحرب والدمار وإسالة الدماء على الارض الأفريقية . هذا جيش أفريقا ،

الفرنسى ، الذى ولد ونشأ وترعرع فى معارك الجزائر ، وحروبها القاسية ودارت رحى الحرب سنوات والهزائم تتولى والمصاعب تتضاعف وليس لدى الفرنسيين الخبرة الواسعة بالإدارة والحكم ، فهم تارة يجنحون إلى الشدة ، ويقنعون أنفسهم إنها هى الحزم ، وأخرى يتقربون زلفى إلى الأهالى ، وفى أوقات يقدم قوادهم على عمليات حربية ، فيها المجازفة والتسرع ، فترتد عواقبها وخيمة عليهم .

من وسط هذه النكبات ظهرت فكرتان : الأولى إنشاء المكاتب العربية التى أطلق عليها فى النهاية إسم المكاتب الوطنية . والثانية تجنيد أهل البلاد وقد ظهرت بوادر النجاح فى الناحيتين ، إذ بالاعتماد على الفرق الوطنية المقاتلة وبعد احتلال مدينتى بون ووهران ، واتباع خطة الدفاع أمكن انقاص القوات الفرنسية من ٣٧ إلى ١١ ألفاً فعد هذا نجاحا للقيادة .

أما المكاتب العربية فهى التى وضعت سياسة التخريب والتشريد[1] وهى إحراق المناطق المزروعة ، ومصادرة قطعان الماشية ، التى تملكها القبائل العاصية ، والاستحواذ على الأطفال والنساء كرهائن ، والفتك بهم إذا استمرت الحرب ، وأخيراً تطور هذا النشاط إلى القمة ، واتجه إلى بذر الشقاق بين عناصر وطوائف الأمة الجزائرية ، وخلق قضية العرب والبربر ، فكسبت هذه المكاتب فى هذا النشاط من المعارك أضعاف ما كسبته فرنسا بقوة السلاح .

---

(١) لو قرأ المسئولون اساليب فرنسا فى الجزائر لما وقعت نكبة فلسطين .

وكان الأمير عبد القادر أول ضحايا عمل هذه المكاتب فإن قواد فرنسا حاولوا كثيرا أن يعقدوا اتفاقا معه ، ولما توصلوا لذلك ، واعترفوا باستقلاله وأمارته سلطوا مكاتبهم عليه ، ووجهوا المطاعن بواسطة وكلائهم وخدامهم ، فقالوا أنه حالف الكفار ، واعداء الدين ، فأصبحت بيعته باطلة ، ووكالته على الناس غير قائمة ، وعرفت هذه المكاتب السياسية أن تجعل بين أبطالها من هم من رجال الدين والطرق والزعامة ، وجندت من يتظاهر بالجهاد الوطنية ، وأصبحت مع الزمن من أخطر المنظمات الاستعمارية وأشدها وطأة بما تملك من الوسائل والقوى الخفية ، مما يعجز الناس عن تصديقه ، ولقد عشنا فى كثير من بلدان الشرق ، ورأينا أمثال هذه المنظمات تعمل فى هدم الكيان الإسلامى والاستقلالى ، ورأينا أناسا يقودون المظاهرات الوطنية ، ويخطبون فى الجماعات ، ويجاهرون بمبادىء متطرفة ، ويكتبون عن أنظمة للحكم ، يسارية أو نازية ، ثم يكتشف بعد زمن طويل ، وبعد فوات الفرص أنهم مقيدون كخدم لهذه المنظمات الخطرة ، يتلقون وحيها ، ويعملون بأوامرها ، وقد وصل بعضهم إلى المال والمراكز والجاه ، تحت ستار التضحية والعمل والإخلاص فطوبى لهم .

ولهذا يجدر بالأحزاب والمتصدرين للجهاد فى سبيل المثل العليا

أن يرقبوا الأنصار والأتباع ، قبل الخصوم والأعداء ، وأن يقوموا من بين وقت لآخر بغربلة صفوفهم ، واجراء حركة تطهير ، لأن الدول الاستعمارية وطدت سلطانها بهذه المنظمات ، وبمن يتبعها من الرجال المنبثين فى كل جهة والذين يشايعون الاستعمار وتلعنه ألسنتهم ويتظاهرون بالتطرف لاخفاء حقيقة الأمر .

ولقد تمكن الأمير عبد القادر من إيجاد دولة عربية مستقلة ، عاهدت الفرنسيين على السلام ، واحتفظت بقواها كاملة ، بعد أن حققت ما ترمى إليه با نتصارها فى ميدان القتال ، ولكن الدولة التى عاهدها كانت تفكر قبل أن توقع على المعاهدة فى نقضها فما ان وقعت عليها حتى بدأت ترسل النجدات تترى ، وأخذت تثير القبائل عليه .

ويقول الفرنسيون فى ذلك « إننا لم نعقد مع أمراء المسلمين معاهدة وإنما عقدنا هدنة لكسب الوقت ، حتى يتم تحطيم الجبهة الشرقية ثم نعود إليهم فى وهران . »

هذا ماحدث فإن ضغطهم تحول فجأة من جبهة الأمير عبد القادر إلى جبهة قسنطينة على حدود تونس ، حين عبأت فرنسا قواتها بكاملها ، وزحفت على المدينة فى هجمتين . فشلت فى الأولى فى فبراير سنة ١٨٤٧ وكان ذلك قبل التوقيع على معاهدة تفنا مع الأمير ، ونجحت

فى الثانية بعد نقل حاميات الغرب فاقتحمت المدينة المحصنة فى اكتوبر سنة ١٨٣٧ .

ومن ذلك يتضح أن قواد فرنسا بعد أن أدركوا فداحة حرب الجزائر أخذوا ينسقون خططهم الحربية، فوضعوها على ان تنفذ على مراحل ، إذا أتموا مرحلة ، انتقلوا لغيرها، ووضعوا المبدأ الثابت وهو شراء النصر والغلبة بأى ثمن ، حتى لا تفقد فرنسا هيبتها العسكرية .

ولذلك وصلت قوة جيوشهم إلى ٥٦ ألف مقاتل فى سنة ١٨٤٠ ، واستدعت فرنسا بعض الكتائب الممتازة من أصناف القناصة التى كانت تعد من قبيل فرق الكوماندو فى العصر الحاضر ، لتفوقها فى التدريب أى زهرة الجيوش الفرنسية .

أما الأمير فقد آمن بعد مفاجأة الفرنسيين لعاصمته بالفرق الكبير (بين الجنود المنتظمة والجنود المتطوعة) ولذلك انتهز فرصة عقد المعاهدة وعزم على إنشاء جيش نظامى حديث فعقد مجلسا عاما من رجال الدولة وأعيان الرعية وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامى ومنافعه وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه فأجابه الجميع ، ونودى أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر . . فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدى ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الأمارة والمعسكر ، ليقيد أسمه فى الدفاتر الأميرية .

ومع انتصارات فرنسا فى جبهة قستنطينه أخذت تظهر بين جنودها آثار الحروب الإفريقية ومتاعبها ، فقد ساعدت سنوات السلم على ازدياد حوادث العصيان بين الجنود الأوروبيين ومخالفة الأوامر ، وعدم الاذعان للقواعد المعمول بها فى الفرق الفرنسية باوروبا ، نتيجة لاختلاف البيئة والجو ، بل أن مضى السنوات أبان اختلال الأنظمة الصحية وأساليبْ التغذيه ، واضعف النظام مما أدى كما قلنا إلى الإستهانة بتطبيق القواعد العسكرية ، وظهور حوادث العصيان ، وأعقب ذلك نكبة مليانة التى أظهرت للعيان ضعف قوة المقاتلة لدى الفرق الفرنسية الصميمة ، وفقدان الروح العسكرية ، ودرجة الضبط والربط ، التى عرفت عن الجيش الفرنسى إزاء هذه النكبة اضطرت فرنسا إلى تغيير قيادتها العامه فى الجزائر برمتها وأجبرت على إدخال أنظمة جديدة للجيش وإلى العمل على رفع مستوى الحياة فى الثكنات والمعسكرات والتشديد فى المحافظة على روح المقاتلة والكفاح فى المستوى المعتاد ، بعد أن كانت هبطت هبوطاً ملموساً فى المعارك الأخيرة .

ولم يستفد الأمير عبد القادر من هذه الفوضى الضاربة أطنابها لما ينقصه من خبرة وإلمام بأساليب الأوربيين وأنظمتهم وإلا لضربهم ضربة ميته وقت شدتهم .

ومن كل ذلك تخرج بنتائج مؤلمة .

إن جهاد أهل الجزائر كان مجيداً ومشرفا لهم ، ولـكنه لم يكن موحداً تتولاه هيئة قيادة عامة ، كان جهاداً مرتجلا ، ولم يكن هناك ارتباط أو تفاهم أو تآزر بين مختلف الجبهات . (١)

إن الأمير عبد القادر بقى وحده يجاهد ، فلم تصله أية مساعدة من تركيا أو مصر .

إن عبقريته ظهرت فى المعارك التى انتصر فيها ، ولـكن لم يدعمه أحد من القواد أو الفنيين الأوروبيين .

إن متاعب العدو ومشاكله بقيت مكتومة من علم الأمير وقواده

إن المكاتب العربية التى أنشأتها فرنسا كانت على علم تام بمشاكل الأمير ومتاعبه وكانت تزيدها وتحركها وتشعل نيرانها إذا همدت .

إن السلم الذى حصلت عليه فرنسا كان هدنة لكى تتمكن من توجيه ضرباتها إلى جبهات أخرى ، ثم تعود إلى الجهة التى سالمتها لتقضى عليها .

فى وسط هذه الحروب تبدو حكمة الضابط الياباني أنه أخذ بالعقلية الأوروبية لأجل الخلاص ، لأجل إنقاذ الوطن لكى ينتصر على الأعداء: وهذا هو الطريق الذى يؤدى الى كسب المعركة .

---

(١) ظهرت هذه الاخطاء فى حملة فلسطين ١٩٤٨ .